" مهارات المعلِّم النّاجح في المرحلة الابتدائيَّة وتقنيّات التَّعليم الحديثة "

أِعداد

د. جوزف حسيب عبد السّاتر

لم تشهد مسألة التَّربية والتَّعليم اهتمامًا بالغ الأهمِّيَّة كما تشهده اليوم. والفضل في ذلك يعود إِلى جهود حثيثة تقوم بها هيئات تربويَّة متخصّصة بالتَّعاون مع الجامعات والمؤسَّسات التَّربويَّة والتَّعليميَّة المختلفة. فالمعنيُّون في الدُّوَل النّامية، أو التي هي في طور النُّموّ، يسعون بشتّى الوسائل إِلى أن ينظِّموا التَّعليم الأساسيّ ليشمل كلَّ فئات المجتمع، ويوفِّروا في الوقت عينه لنخبة من النّاس ما يسمَّى بالتَّعليم العالي.

أمّا في البلاد الصِّناعيَّة فيعيد المسؤولون التَّفكير بهذا الموضوع انسجامًا مع الحاجات الطّارئة، فيطرحون على طاولة البحث برامجَ وهيكليّاتٍ إِداريَّةً وتربويَّة، ويقومون بالتَّجارب ويسعَون لاكتشاف طرق جديدة حديثة لمعالجة المسألة هذه.

ويخطر بالبال أنَّ مجتمعات اليوم، ومجتمعات الغد، خاصَّةً، تفرض على التَّعليم وسائل جديدة كما لم يحدث لها مثيل من قبل.

لكي تحقِّق المجتمعات هذه تقدُّمًا ينسجم والتَّطوّر العلميّ المتزايد يومًا بعد يوم، أصبح من الضَّرورة أن يحظى المواطنون كافة، ومن دون أيّ استثناء، بتربية مناسبة، وبالتّالي يحظى أكبر قدر من النّاس بتعليم متطوِّر.

وبالتّالي يمكن القول إِنَّ أزمة التَّعليم، في المرحلة الابتدائيَّة، خاصَّةً، تندرج في إِطار أزمة حضاريَّة أوسع. إِنَّه عالمٌ جديد في طور التَّقدُّم يسعى إِلى التَّفتيش عن ذاته، ربَّما، عبر الإِصلاحات المدرسيَّة المقترحة على كلِّ صعيد.

وفي هذا العالم نلاحظ أربعة أنواع من المشكلات الكبيرة تواجه التَّربية والتَّعليم: فورةٍ مدرسيّة حقيقيّة، وثورةٍ علمية وتكنولوجية حالية، وتغييراتٍ جذريَّةٍ في ظروف

المعيشة، وسرعةِ تغيير في الأفكار، ممّا يجعل التَّعليم يرتقي، كذلك، إِلى مستوى التَّحدّي.

ومنذ بضع سنوات، وقبيل ظهور المشاكل التَّربويَّة، دقَّ ناقوس الخطر، فالتَّلاميذ يتوجَّهون بأعداد كبيرة إِلى المدارس والكليات والجامعات؛ فنتج من ذلك نقصٌ ملحوظ في المباني، والمختبرات والمكتبات، ونقصٌ في عدد الموظَّفين والمعلِّمين الأكفياء ومن أصحاب الاختصاص، وبخاصَّة في المراحل الابتدائيَّة الأساسيَّة. وكانتِ الحاجة إِلى توسيع للبناء، وإِلى التوظيف، ولاسيَّما الحاجةُ إِلى تعيين معلِّمين، وتدريبهمِ التَّدريبَ الكافي الوافي على التّكنولوجيات الحديثة التي تفرض نفسها اليوم في الصّفوف سواء في المدارس أم في الجامعات؛ من رتّاب ومرآة عاكسة ولوح ذكي ورتّاب محمول وكتاب إِلكتروني إِلى ما هنالك من تكنولوجياتٍ وبرامجَ عصريَّةٍ وحديثة. ولا بدَّ في المجال هذا من أنْ نشير إِلى أنَّ القراءة الإِلكترونية هي شكل بدأ يفرض نفسه بقوة في ظل توافر العديد من أدوات القراءة التى أوجدتها التكنولوجيا كجهاز Nook HD و Kindle Fire HD 7 و Google Nexus 7.

وتلفت الباحثة هيام حايك[1] إِلى أبحاث تشير إِلى أنَّ منصة « شيربوينت Sharpoint » الجديدة ستأتي مع تطبيقين جديدين هما « SharePoint Newsfeed» و« SkyDrive Pro »، وقد صُمِّما بشكل يناسب أنظمة تشغيل الأجهزة النقّالة «ويندوز Windows 8 ٨ » و« ويندوز فون ٨، Windows Phone 8 » و« آي أو إس IOS ». وكانت شركة "مايكروسوفت" قد أعلنت في تمّوز ٢٠١٢، أنَّها بصدد إِطلاق مجموعةٍ جديدة متكاملة ومطوَّرة لنظام "شيربوينت" SharePoint كان من أهمِّها

١_ كاتبة في مدوّنة **نسيج** للمكتبات.

SharePoint Server 2013 Preview و نسخة المعاينة " Release Preview" من متصفِّحها الجديد " أِكسبلور ١٠" لنظام تشغيل "ويندوز ٧".

كما يمكن اعتبار بعضِ الكومبيوترات اللوحية كالآي باد iPad من Apple، وجلاكسي تاب GALAXY Tab من Samsung، وغيرهما، قارئَة كتب أِلكترونية، وذلك على الرُّغم من عدم تخصُّصهما في الكتب الأِلكترونية بشكل كافٍ كـــَ "كيندل فاير" Kindle Fire ... وكان اتحاد الأِعلام الجديد New Media Consortium قد أصدر بالاشتراك مع مؤسسة EDUCASE تقرير هورايزون Horizon العاشر مع بداية العام ٢٠١٣. ويُعَدُّ تقرير هورايزون من أهمّ أِنجازات الاتِّحاد المذكور، ويصف هذا التقرير السنوي نتائج المشاريع البحثية الجارية الرامية أِلى تحديد التقنيّات الجديدة والتحدِّيات التي قد تؤثِّر في التَّعليم خلال السَّنوات المقبلة. ويشير التقرير أِلى أنَّه في السَّنوات الماضية، كانت هناك مكتشفات جديدة فتيَّة كـــَ " الأِنترنت " و" أجهزة الرَّتّاب المحمول " التي تصدَّرت قوائم التكنولوجيا مُحْدِثة ثورة في عالم المكتشفات. ويلحظ التَّقرير تكنولوجياتٍ جديدةً سريعة قد يكون لها كبير الأثر في تغيير مسار التَّعليم في السَّنوات القادمة. بالأِضافة أِلى برامج حديثة كذلك، كالحوسبة السَّحابيَّة Cloud Computing، وسحابة شير بوينت Share point التي تتوسَّلها اليوم جامعات كثيرة كجامعة ألاسكا Alaska Pacific University، وجامعة فيكتوريا Victoria University، وغيرُهما كثُر.

وفي العودة أِلى الفورة المدرسيّة هذه، فأِنَّ قلَّةً من البلدان أعدَّت لها خططًا عامَّة آمنة وفعّالة. ففي مؤسّات مختلِفة يسعى بعض القيّمين أِلى الثَّروة والرّبح السَّريع: يعدّون المباني، ويوظِّفون، على جناح السُّرعة، أشخاصًا غير مهيَّئين، ربَّما، ويرفِّعون بعض المعلِّمين من الصّفوف الابتدائيَّة أِلى التَّكميليَّة، ومن الصّفوف التَّكميليّة أِلى المرحلة الثانوية، ويلجأون أِلى تعبئة المراكز الأِداريَّة بأساتذة أكفياء. ومع ذلك، يبدو الخطر

عظيمًا، في هذه الحالة، إذ تتمُّ التَّضحية، بالتَّلاميذ ومستوى الدِّراسة، وأحيانًا، إلى إنهاك الهيئة التَّعليميَّة ممّا يؤدي إلى كلِّ أنواع الظلم والتَّناقضات.

وتُعزى هذه الزِّيادة في معدَّلات الالتحاق بالمدارس إلى الضُّغوط الدّيموغرافية النّاجمة عن ارتفاع معدَّل الزّيجات والولادات التي رافقت الحرب العالميَّة الأخيرة، وتلتها. مع الإشارة إلى أنَّ ثمَّة ديموغرافيّين توقَّعوا هذه الزِّيادة إلاّ أنَّهم لم يتصوَّروا أنَّها ستدوم كلَّ هذا الوقت.

إنَّ ارتفاع معدَّل الولادات أضاف الرَّغبة والحاجة لدى الآباء والأمَّهات والتَّلاميذ، إلى تعليم متطوِّر. هذا العامل يزيد من عدد المتعلِّمين على مستوى المدارس الثّانوية.

ففي المئة عامًا المنصرمة، حقَّق العلْم نجاحات لم يحقِّقها عبر السِّنين. وقفزت المعارف البشرية قفزاتٍ هائلةً في مختلِف القطاعات، كالبيولوجيا، والفيزياء، والعلوم الإنسانيَّة، والعلوم الطبيعيَّة، والرِّياضيّات البحتة أو العلوم التطبيقيَّة. وتحوَّل الفكر العلمي تحوُّلاً سريعًا؛ فقامت المختبرات ومراكز البحوث لتتنافس أحيانًا، أو تتعاون أحيانًا أخرى.

ومن المعروف أنَّ العلوم تتضاعف كلّ عشرة أعوام؛ فإذا تصفَّحنا المجلاّتِ العلميَّةَ في مكتبة جامعيَّة تبيَّن لنا كثرةُ الأبحاث التي تتكامل في كلِّ واحدة من هذه العلوم في العام الواحد. وتُترجَم هذه الأبحاثُ في المكتشفات التِّقنيَّة، في الصّناعة، والتِّجارة، وفي الحياة اليوميَّة. والعصر التّكنولوجيّ الذي نعيش فيه يعزِّز أمبراطوريَّة العلوم وتأثيرَها في الحياة الفرديَّة والاجتماعيَّة. وتلتزم الحضارة الحديثة تطورًا متناسبًا مع ما كان معروفا حتى الآن. ولتبيان مدى تأثير هذه التَّحوُّلات في المجتمع وفي التَّعليم يجب أن نضعها في إطار التَّطوُّر الاقتصاديّ والتِّقنيّ. فعلى امتداد المئة عامًا

المنصرمة كان الاقتصاد يعتمد على الزِّراعة وعلى الأعمال الحرفيَّة؛ وبالتّالي فإنَّ التَّعليم لم يكن ضروريًّا، بل كانت الحاجة، آنذاك، إلى القوَّة الجسديَّة أكثر منها إلى الفكريَّة. وبالتّالي فإنَّ الاقتصاد كان يعوّل على المجموعات غير المتعلِّمة، ثم نلاحظ أنَّ العاملَ الذي خلَف الحرفيّ يفسح في المجال اليوم أمام التِّقنيّ الذي هو بدوره يحتاج إلى تربية أوسع وأشمل. ولهذا أصبح القبول في المدارس التِّقنيَّة أكثر تطلُّبا، بخاصَّة في المجتمعات الغربيَّة.

ومن ناحية ثانية فإنَّ التَّقدُّم العلميَّ والتّكنولوجيّ والتَّطوُّر الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي نجم عنهما أَولى التَّعليم اهتمامًا متزايدًا، فشكَّل بذلك أساس المجتمع المعاصر. وبالتّالي يجب تأمينُ مستوًى تعليميٍّ لائق، وتحضيرُ مِلاكات جاهزة للقطاعات كافَّة، وتوفيرُ عناية خاصَّة بأولئك العاملين في قطاع التَّربية والتَّعليم، ولاسيَّما في المرحلة الابتدائيَّة.

من هنا، يجب توفير ثقافة مهنيَّة وتقنيَّة للمعلِّمين، في المرحلة الابتدائيَّة، خاصَّةً، بهدف التَّكيُّف مع هذا التطوّر اللامتناهي للعلوم والمكتشفات الحديثة. وفي حال التَّلكُّؤ في هذا الموضوع فإن المعلِّمين يتعرَّضون لنوع من السَّبق مع الزَّمن. فيخسرون الكثير من المؤهِّلات التي تسمح لهم بمواكبة التَّطوُّر اللامتناهي. ماذا ينتظرنا في المستقبل القريب؟ أيُّ تطوُّرٍ آخر سيطرأ على الإنسانيَّة؟ وهل صحيح أنَّ هناك مكتشفاتٍ لم يُكشَفِ النِّقابُ عنها بعد؟

إزاء هذا الواقع، ثمَّة سؤالٌ يطرح نفسه: ماذا يُنتظَر اليوم من المعلِّم في المرحلة الابتدائيَّة؟

أَنَّ الوسائل التِّقنيَّة سلاحٌ ذو حدّين، فإذا لم يكن المعلّم على معرفة بها وبتشغيلها، فقد يصبح هو الضَّحيَّة، ذلك بأنَّ التَّعليم فنٌّ في نقل المعلومة بأقصى درجة من الوضوح ليتمكنَّ الولدُ _ المتعلِّم من فهمها والتَّمكُّن منها. والتِّقنيّات الحديثة تفسح المجال أمام أِمكانيّات جديدة لهذا الفنّ ليكون أكثر فاعليَّة. فهي تأتي بثورة شبيهة _ إذا جاز التَّعبير _ باختراع المِطبعة في القرن الخامسَ عشر. ولهذا يُفرَض على المعلِّم جَهدًا أكبر في استعمال التِّقنيّات السَّمعيَّة _ البصريَّة، التي توفِّر، في المضمار هذا، تواصلاً أسرع ممّا يوفِّره الكتاب المطبوع، وأكثر أِحياءً، وأكاد أقول أكثر فاعليَّة. فهي بالصّورة والصَّوت، تكمل كلمة المعلِّم وتجعلها أكثر حيويَّة. لذلك على المعلِّم أن يحسن استعمالها لتكون أكثر فاعليَّة وتسهم أِسهامًا أكبر في نقل المعلومة. وبالتّالي يجب توفيرُ الأِعداد الضَّروريّ للمعلِّم، ويفرض ربما أِعادة نظر في التَّربية التَّقليديَّة. ذلك بأنَّه من غير المستحيل أن تحمل هذه التِّقنيّات الجديدة بذور ثورة تربويَّة في التَّعليم شبيهة بالثَّورة التي أحدثها اكتشاف المِطبعة. مع العلم أنَّ المِطبعة، رغم ذلك، فتحت الباب أمام تعليم جامد لأنَّ المعلِّم والولدَ _ المتعلِّم أصبحا كلاهما أسيرين لهذا الكتاب، الذي ارتدَّ بدوره المعلِّم الأكبر، كما يرى بعضهم.

أَنَّ هذه التِّقنيّات الجديدة قد تحيي الوسائل التَّقليديَّة الفاعلة على أن يَستغلَّ المعلِّم كلَّ الأمكانيَّات التي توفّرها. بيد أنَّ هذه الوسائل قد تطرح هي نفسُها أِشكاليّاتٍ على مستوًى آخَر: تأثيرها في الشباب؛ ذلك بأنها تعزز اللامبالاة الفكريَّة لديهم. بعضهم قد يخطئ في تقويم هذا التَّأثير لأنَّ الشَّباب لم يعودوا يتأثَّرون كثيرًا بالمدرسة أو بالأسرة.

وحضارتنا لم تتآلف بعد مع هذه التِّقنيّات الحديثة سريعة الانتشار. وأِزاء هذا الوضع، لم يعد المعلِّمون قادرين على أن يقفوا موقف المتفرِّج أو غيرِ المبالي، بل عليهم أن يتكيَّفوا مع لغات التِّقنيّات هذه، وعلى المدارس والمؤسَّسات التَّربويَّة كافَّة أن تُحسن أِعداد المعلِّم أِعدادًا كافيا لها. مع الأِشارة أِلى أنَّ التَّعليم الحديث يتطلَّب هذه التَّغييرات.

وعلى المعلِّم، في المرحلة الابتدائيَّة، أن يبقى متضلِّعًا من كلِ جديد _ شأنُه في ذلك شأنُ الطَّبيب والمحامي وغيرهما _ عبر ورشات عمل، ودورات تدريبيَّة متواصلة، ومطالعات مكثَّفة؛ فالتَّعليم لن يتطوَّر إذا بقي منغلِقًا على ذاته.

إنَّ التَّقدُّم العلميّ والتّكنولوجيّ يولي التَّربية والتَّعليم اهتمامًا أكبر إذا لم نقل أنَّه بات يشكِّل أساس المجتمع المعاصر. وبالتَّالي يجب توفيرُ مستوًى تعليميٍّ رفيع، وتهيئةُ الكوادر تهيئةً حقيقيَّة لكل المستجدّات لكي يحافظ التَّعليم على مستواه. وإذا لم تتأمَّن للمعلِّم، في المرحلة الابتدائيَّة، هذه المناخاتُ المناسبة، يُخشى أن يتدنّى مستوى التَّعليم في لبنان، لا سمح الله.

وأخيرًا على المعلِّم، في المرحلة الابتدائيَّة، من جهته، ومن خلال جهوده المتنوِّعة في الحياة، أن يحاول دائما أن يعرف ماذا أنجز من الجهود هذه، وماذا بقي عليه أن ينجز منها. وعندما يقوم بذلك إنما يهدف إلى معرفة قيمة الأعمال التي قام بها مقارنة بما بذل منها من جَهد ومال ووقت. وليست معرفة القيمة هنا هدفًا في حد ذاته، بقدر ما هي مقصودة لمعرفة ما إذا كان سيستمر في تلك الجهود التي يبذلها لتحقيق المطلوب، وبالأسلوب نفسه الذي كان يتَّبعه، أم يتطلَّب الأمر تغييرًا في الأسلوب للوصول إلى نتائجَ أفضل. وهذا النَّوع من التَّقويم يعرف بالتَّقويم الذّاتي، أي أنَّ الفرد يحكم على الأشياء، والمنجزات والأشخاص بقدر ما ترتبط بذاته، والتَّقويمُ بهذا المفهوم عبارةٌ عن زِنَةٍ للأمور، أو تقديرٍ لها، أو حكمٍ على قيمتها.

فهل يبقى المعلِّم، في المرحلة الابتدائيَّة، خاصَّةً، صلةَ الوصل بين التِّلميذ والبرامج التَّعليميَّة المقرَّرة؟ وهل يبقى الكتاب هو الأداة الفضلى في توسيع آفاق المعلِّم والمتعلِّم على السَّواء؟